مجلة إشكالات في اللغة والأدب | مجلد: 10 عدد: 2 السنة: 2021
ص: 696 - 707 | E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

الكتابة اللّسانيّة التمهيديّة العربيّة– قراءة في الوظيفة والهدف

Arabic Introductory Linguistic Writing: A Reading of the Function and the Purpose

* هشام فـــــرّوم[1]، محمد رضا بركاني[2]

Hicham ferroum[1], Mohammad redha berkani[2]

جامعة الشاذلي بن جديد– الطارف (الجزائر).

University of Chadli Ben Jdid- Al-Tarf

hichamferroum@gmail.com[1] / berkanirida@gmail.com[2]

تاريخ الإرسال:2020/11/05	تاريخ القبول:2020/12/18	تاريخ النشر: 2021/06/02

ملخص البحث

تعددت تصنيفات اللّسانيّين للكتابة اللّسانيّة العربيّة، بتعدّد المنطلقات والمبادئ المعتمدة في عمليّة التّصنيف بين الموضوع والمنهج والغاية، وتبعا لهذه المعايير صُنّفت هذه الكتابة إلى عدّة أنواع؛ لكن تبقى اللّسانيّات التمهيديّة أهمّ هذه التخصّصات كونها البوّابة الأساسيّة لفهم كل تلك الأنواع من البحوث اللّسانيّة؛ لأنّها التزمت بالجانب التعليميّ التبسيطيّ بإعطاء القارئ العربيّ الكليّات العامة والمبادئ الأساسيّة الّتي يقوم عليها الدّرس اللّسانيّ، وهذا ما تنطق به عناوين ومقدّمات مؤلّفاتها، غير أنّ ما يعبّر عنه متن بعض هذه الكتابات يبقى في غالبيّته مغايرا بل ومناقضا لتلك الأهداف المعلنة، وهذا ما خلق فجوة بين ما يحفّز المتلقّي على القراءة (العناوين والمقدّمات) وبين ما يقرأه فعلا (متون الكتابات)، ممّا يضع هذه الكتابات في مأزق كبير بين أهداف تعليميّة تبسيطيّة معلنة وبين واقع القارئ العربي والجزائري على وجه الخصوص الّذي يجد صعوبة كبيرة في التعاطي معها وفهمها.

الكلمات المفتاح: لسانيات تمهيدية؛ إشكالات التلقي؛غايةتعليمية.

Abstract:

Linguists' classifications of Arabic linguistic writing varied according to the multiplicity of approaches and principles adopted in the classification process as subject, method and purpose. Accordingly, such writings have also had several types; however, introductory linguistics remains the most important for being the main gateway to understanding linguistic research. Adhering to simplistic educational aspects, it gives Arab readers general faculties and basic principles on which the linguistic lesson is based, and this

* هشام فروم: hichamferroum@gmail.com

is what its titles and introductions declare. Yet, what is expressed in these writings' bodies remains different mostly and even contradictory to their goals. For that, a gap is created between readers' motives (titles and introductions) and what they read (bodies) putting such writings in dilemmas between simplistic educational goals and realities of Arab and Algerian readers, particularly, who find difficulties to deal with and understand them.
Keywords: Introductory linguistics, Reception problems, Educational goal.

تمهيد:

إن الهدف الأسمى من أية نظرية لسانية ليس الترويج لنظرية أو مذهب، وإنما هو محاولة لإدراك النظام اللغوي في شكله واستعماله، وإدراك المجتمع الإنساني ومعرفته البشرية التي تتجلى وراء اللغة، والوقوف على الظّروف والملابسات التي لها قيمتها في توجيه القضايا نحو منحى معيّن. فأين هي المحافظة التي تفرضها تركيبة الثقافة النقدية اللسانية، وتفرضه عبقرية اللغة العربية؟ وأين هي الاستراتيجيات التي ترسمها الأمم لحياتها؟ وأين هي إسقاطات اللسانيات التي تتوخى الجدوى وصورتها في الدرس الغربي؛ وهي إسقاطات نفعية براغماتية، وإسقاطات علمية تكنولوجية؟

إن هذه النقاط ستظل قائمة ما لم يُستقرأ موضوع اللسانيات النقدية في الدرس العربي، استقراءً علميًّا دقيقًا، وتوضع له قراءة مستفيضة تستقصي جزئياته، وتُنزل هذا الإسهام المنزلة التي يستحقها. وهو ما نعرض له في هذا المقال الموسوم بـ: "اللّسانيّات العربيّة بين النقد التقليدي ومأزق المناهج الحديثة". وكان من أسباب تناولنا لهذا الموضوع إلى ما يلي:

- حالة الريب والشكّ الّذي يعيشه المتلقي العربي إيزاء هذا التوجّه الفكري الجديد.
- اختلاف المحدثين من أصحاب الدراسة اللغوية الجديدة في مسائل عدة، وهي مسائل جوهرية، وسبب الاختلاف يكون من المنطلقات؛ فإذا لم تراع هذه المنطلقات فإن التباين حاصل لا محالة على الرغم من الاتفاق على أن دراساتهم الجديدة علمية.
- هذه الطرق في المعالجة اللسانية أغفلت جملة من القضايا تتمثل في: عبقرية اللغة وتغيّراتها المجهرية، كما لا تُقيم وزنا للعقبات التي أدت إلى عرقلة مسار الدرس اللساني العربي، وبعض القضايا التي أبعدت هذه المناهج عن طبيعة العلم كاعتماد التأسيس لنظرية أو رفضها على مثال واحد، وإغفال الظروف والملابسات في توجيه القضايا التي يقال عنها إنها علمية، ويختبئ

وراءه كل من يريد أن ينعت الدرس العربي بكل النعوت السيئة. ومن ثم فهو يصدر الأحكام من غير قراءة فاحصة للمسألة، أو مسح شامل لها في مضانها المختلفة.

أوّلا– اللّسانيّات التمهيديّة: حدود مفاهيم:

ارتبط مفهوم اللّسانيّات التمهيديّة أو التبسيطيّة بمرحلة شهد خلالها الفكر العربيّ حالة من الجمود والتراخي المعرفي بسبب الوضع السياسي الّذي ألقى بظلاله السوداء على كلّ مناحي الحياة؛ اجتماعية، وثقافية، وفكريّة، في مقابل ازدهار الفكر الغربي الّذي خلق صناعة معرفية تجاوز بها ومن خلالها كلّ الحدود، وأعلن بروز معرفة احتلت الصدارة وأصبحت تشكّل قطب الرّحى في المعرفة الإنسانية قاطبة.

ما حتّم على العرب خلق نوع من المثاقفة مع الفكر الغربي، كان منطلقها ومبتداها محاولة نقل جزء من هذا الفكر وفق منهج تعليمي كأداة إجرائية ووعاء هيكلي؛ يساعد على الشّرح والتوضيح عبر أمثلة دالة ورسوم بانية. وقد تجلّت هذه النزعة التعليمية التعريفية بموضوع اللسانيات العامة لدى الرعيل الأوّل من اللّسانيين العرب من خلال خطاب العتبات اللّسانية التمهيدية والتي تمثلت في العناوين والمقدمات وعناوين الأقسام والفصول والخواتيم. وهذا ما تجلّى في عناوين عدد من المؤلفات كـ (علم اللغة؛ مقدمة للقارئ العربي) لـ محمود السعران، و(الألسنية–علم اللغة الحديث– المبادئ والأعلام) لـ ميشال زكريا، و(المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث فيه) لـ رمضان عبد التواب، و(مدخل إلى علم اللغة) لـ محمود فهمي حجازي، و(مدخل إلى لسانيات سوسير) لـ مبارك حنون، وغيرها من المؤلفات التي انبرت لمهمة التعريف بهذا الوافد الجديد.

وعليه؛ يمكن اختزال مجال اشتغال الدّرس اللّساني التمهيدي التبسيطي في اللّسانيات الحديثة بكلّ مبادئها النّظريّة وآلياتها المنهجيّة، واتّجاهاتها الفلسفيّة، كما أنّ مسعاها التّعليميّ المنهجيّ، فيتلخّص في تبسيط المعرفة اللّسانية للقارئ المبتدئ؛ إذ "تمثّل الغاية التّعليميّة الهدف الأسمى الّذي يستأثر باهتمام كلّ مؤلّف تمهيدي، ومن هذا المنطلق تلحُّ مقدّمات المؤلّفات اللّسانيّة التّمهيديّة على هذا الجانب، وتُوليه ما يستحقّ من اهتمام، خصوصا أنّ هذه المقدّمات هي أوّل ما يُقرأ، فتكون بمثابة تعاقد بين الكاتب والقارئ، تعاقد على الإقبال من لدنّ القارئ، وتسهيل وانتفاع من لدنّ الكاتب، فمن البديهيّ أن تعزف كلّ الكتابات التّمهيديّة على هذا الوتر الحسّاس عند القارئ، وأن تعبّر عن ذلك بشكل صحيح"[1].

وهذا ما عبّرت عنه بعض المقدّمات، كما جاء في مقدّمة كتاب (اللّسانيّات من خلال النّصوص) لـ عبد السّلام المسدّي: "هدفنا الوحيد الجدوى التّربويّة والإبلاغ التّعليميّ، وبهذا الصّنيع يغدو الكتاب أداة تثقيفيّة؛ إذ بوسعه أن يمكّن القارئ العادي من الاسترسال مع صفحاته متتبّعا قصة اللّسانيّات في يسر، وعلى غير تراكب فنّي"[2].

كما جاء في مقدمة كتاب التّهامي الرّاجحي الموسوم بـ (توطئة في علم اللّغة) ما يلي: "أقدّم للقارئ العربيّ توطئة تساعده على معرفة اللّغة، وتهيئه لتتبّع الخطوات اللاّحقة بيسر ومرود كبيرين"[3].

كما اتخذ محمود السّعران عنوانا دالا على هذا؛ هو (علم اللّغة؛ مقدّمة للقارئ العربيّ)؛ وهو كتاب غايته تقديم اللّسانيّات الحديثة، معتمدا أسلوب التّحفيز لولوج هذا الفكر الحديث ومتابعته، من خلال الإشارة إلى أهميّة هذا التخصّص في الدّراسات الحديثة. يقول: "إنّ (علم اللّغة) من حيث هو علم يرشدنا إلى مناهج سليمة لدرس أيّ ظاهرة لغويّة، وهو يهدينا إلى مجموعة من المبادئ والأصول متكاملة مترابطة عن اللّغة وحقيقتها ينبغي أن تكون في ذهن الباحث اللّغوي على الدّوام، ... إنّ علم اللّغة هو وجهة النّظر الجديدة، أو (الفلسفة الجديدة) الّتي حلّت محلّ وجهات النّظر القديمة والفلسفات اللّغويّة السّابقة. و(علم اللّغة) قد تجنّب أخطاء جوهريّة في (الفلسفات) اللّغويّة القديمة السّابقة، وعلم اللّغة قد قدّم مبادئ لم يعد شكّ في أنّها أكمل وأشمل وأصدق وأضبط، واعتمد على وسائل وآلات أدقّ مرّات ومرّات من وسائل الأقدمين وآلاتهم"[4].

ولم تَحِد جلّ الكتابات التّمهيديّة عن الغاية التي لأجلها وُجدت. يقول محمود فهمي حجازي: "هذا كتاب يضمّ فصولا تمهيديّة في علم اللّغة، تقرّب حقائقه الأساسيّة"[5].

وهي الغاية ذاتها عند عبد القادر الفاسي الفهري الّذي يقول واصفا كتابه (اللّسانيّات واللّغة العربيّة): "البحث الّذي بين يدي القارئ الكريم تذكير ببعض المبادئ الّتي نادينا بها منذ سنوات... نبدأ في القسم الأوّل من هذا العمل بمقدّمات ضمنّاها جزءا يعرّف ببعض ملامح الخطاب اللّساني عامة، والخطاب اللّساني العربيّ، على وجه الخصوص"[6].

إنّ هذه الكتابات حاولت إطلاع القارئ العربيّ على اللّسانيّات العامّة ومناهجها، وتزويده بالمعلومات الأساسيّة؛ لكنّها اختلفت في طريقة تقديمها وعرضها للمادة اللّسانية. وفي

هذا الإطار يحدد حافظ إسماعيلي علوي أشكالا ثلاثة، اتخذتها هذه الكتابة للتعريف باللّسانيّات.[7]

1–الشكل الأوّل: اعتمد في تعريفه للّسانيّات من خلال التطرّق إلى أهميّتها؛ الّتي انبثقت من احتلالها "موقعا مركزيا داخل العلوم الإنسانيّة الشّيء الّذي جعلها تفرض عليها نموذجها التّحليليّ ومعجمها المفهوميّ"[8].

2–الشّكل الثّاني: اعتمد في تقديمه للسانيّات بالإشارة إلى موضوعها، وتحليل مضامينها، يقول علي عبد الواحد وافي: "موضوعات علم اللّغة موضع عناية عدد كبير من أعلام الباحثين في أمم الغرب. وقد بذلت في هذا السّبيل جهود قيّمة مشكورة، بلغ بفضلها هذا العلم درجة راقيّة من النّضج والكمال، فوضحت حدوده ومناهجه، وهذّبت أساليبه، وطرق دراسته، وتميّزت فروعه بعضها من بعض، واختصّ في كلّ فرع منها عدد كبير من العلماء، فتوفّروا على دراسته، وقتلوا مسائله بحثا. من ثمّ أصبحت مراجع هذا العلم من أكثر مراجع العلوم عددا، وأوسعها نطاقا، وأدقها بحثا، وأجلّها قيمة"[9]. وعلى النّهج سارت جلّ الكتابات الّتي اعتمدت الموضوع طريقا للتّعريف باللّسانيات.

3–الشكل الثالث: التزم بهذا الخطّ التّعريفيّ غير واحد من كتّاب اللّسانيّات التّمهيديّة؛ حيث تُقدّم اللّسانيّات إلى القارئ العربيّ باعتبارها منهجا علميّا تطبعه الدّقة والوضوح، انطلاقا من كفاءة هذا العلم الجديد في صناعة وخلق أدوات إجرائيّة دقيقة، ومناهج علميّة متماسكة؛ الشيء الّذي جعله "دون نزاع سيّد العلوم الاجتماعيّة ونموذجا لتطبيق مناهج العلم عليها"[10].

ثانيا– المرجعيّة في الكتابة اللّسانيّة التمهيديّة:

لقد حتّمت الوضعيّة الخاصّة للسانيّات العربيّة من جهة أنّها محاولة لنقل النّظريّة اللّسانيّة الغربيّة الحديثة على اللّسانيّين العرب أن يفردوا جزءا بارزا من نشاطهم لتقديم هذه النظريّة وعرضها؛ أي تقديم ذلك الخطّ النّظريّ الّذي ارتبطت به اللّسانيّات العربيّة ارتباطا وجوديا للقارئ العربيّ، ولقد كان هذا العمل إلزاميا على الدّرس اللّساني العربي الحديث؛ فهو ما يعطي المسوّغات النّظريّة له ويميّزه عن سائر النّظريّات في اللّغة.[11]

هذا الوعي بضرورة مواكبة مستجدّات الفكر الغربي بكلّ تفاصيله، أدخل الفكر العربيّ في صراع محتدم بين مرجعيّات مختلفة؛ منها ما يتبع البحث الفيلولوجي، ومنها ما يرتد إلى التصوّرات

القديمة الّتي شكّلتها النظريّة اللّغويّة القديمة، وفي فوضى هذه التقاطعات أوجد البحث اللّساني العربي لنفسه هيكلا مستقلا يصف من خلاله اللّغة العربيّة معتمدا على كلّ هذه الأصول النّظريّة، مع مراعاة ما يتطلبّه الواقع اللّغويّ اليوم من نظر خاصّ.

هذا ما يمكن تسميته لسانيّات توفيقيّة تتبنّى أنموذجا وصفيا يمزج المقولات النظريّة الغربيّة الحديثة بمقولات نظريّة النّحو العربيّ، وكان هذا الموقف الأساسيّ في اللّسانيّات العربيّة.[12]

يقول تمام حسّان: "وتشبّعت المسالك أمام الشّعب بعد أن تثاءب وتمطّى ونفض عن نفسه غبار الموت، فوجد أمامه طريقا في الماضي يقوده إلى التراث العربي الخصب، ورأى أنّه لو بعث هذا التراث وأحياه لكان دافعا لعزة جديدة لا تقل روعة عن التأريخ العربي نفسه، ووجد أمامه طريقا ف المستقبل معالمه ما في أيدي الأمم من علوم ومعارف، ... ثمّ رأى أنّه لو سلك الطّريق الأوّل فحسب لا تقطّع به التاريخ عن الحياة، ولو سلك الثّاني فحسب لا تقطّعت به الحياة عن التّاريخ، ففضّل أن يأخذ بنصيب من التّراث العربي يوحي إليه بالاعتزاز، ونصيب من الثّقافة المعاصرة يمنحه العزّة"[13].

وقد كان هذا الصراع انعكاسا طبيعيا للمرجعيّات التي حكمت الكتابة اللّسانيّة التمهيديّة؛ التي ارتبطت بدءا بنموذجين حضاريين جعلاها تعيش حالة من المد والجزر بين قطبين: الأوّل عائد إلى الماضي موغل فيه على اعتبار أنّه يمثّل هويّة الأمّة وحضارتها الّتي ينبغي الحفاظ عليها، وهو يمارس في ذلك كلّ آليّات الاستنطاق؛ حتى ولو بلغ به الحدّ درجة لوي عنق التراث حتّى يتماشى مع أطروحاته.

أمّا الثّاني فيعمل على محاكاة الحاضر وتمثّله عبر طرحه كلّ أشكال الاستيراد من خلال تبنّي المسار الحضاري الغربي بكلّ تفاصيله، ويعلن القطيعة مع القطب الأوّل.

هذا الصراع بين القديم والحديث في الكتابة اللّسانيّة التمهيدية هو أمر طبيعي شأنه في ذلك شأن الثقافة العربية برمّتها التي عاشت وتعيش صراعا بين هويتين حضاريتين، ومع هذا لم يكن ذلك مانعا من تشكيل حركة فكرية إنتاجيّة ذات قيمة معرفية ضاهت في بعض مناحيها حتى ما ينتج على مستوى الغرب. لكن الإشكال على مستوى اللّسانيّات العربية يكمن في مصاحبات هذا الصّراع ونواتجه المؤسساتية؛ الّتي تجلّت في بروز صراع محتدم بين اللّسانيين العرب كان أغلبه خارجا عن الأطر العلمية، حيث أصبح كلّ طرف ينتصر لمذهبه دون بحث ودون

تمعن، وتشهد على ذلك اللقاءات والندوات؛ إذ "يلاحظ المرء في كلّ مؤتمر أو دورة لسانيّة كثيرا ما تدور الأحاديث والمناقشات حول التّراث اللّغويّ العربيّ المتمثّل بالأعمال الّتي وضعها الصّوتيون والنّحاة والبلاغيّون العرب القدامى، وحول اللّسانيّات الحديثة كعلم قائم برأسه والمتمثّل بالأعمال اللّسانيّة الّتي وضعها وطوّرها الصوتيّون والنّحاة والدلاليّون الغربيّون في الولايات المتحدة أو في أوروبا"[14].وهو ما يؤكّد تجذّر الصّراع واستفحاله، وهو ليس وليد الصدفة، فقد يعود ربّما لعامل نفسيّ متأصّل ومتوارث في الفرد العربي الحديث الّذي جُبل على فكرة الصّراع، أو ربّما هو انعكاس طبيعيّ وامتداد للأزمة النفسيّة الفرديّة الّتي يعيشها الإنسان العربي والّتي كانت نتيجة للأحوال والظروف العامة المضطربة التي تميّزت بالصّراعات الكثيرة على المستويين الدّاخلي والخارجيّ. يقول مازن الوعر في هذا الشأن: "إنّ أساس الصّراع بين الأصالة اللّغويّة والمعاصرة اللّسانيّة ليس صراعا بين الأعمال اللّغويّة التّراثيّة الّتي وضعها العرب القدماء، وبين الأعمال اللّسانيّة المعاصرة الّتي وضعها علماء اللّسانيّات المحدثون في الغرب. إنّ الصّراع في جوهره يكمن بين الباحثين العرب أنفسهمّ؛ بين الباحثين الّذين يشدّهم التاريخ القديم إلى أقصى مسافات اليمين، وبين الباحثين الّذين يشدّهم التّاريخ الحديث والمعاصر إلى أقصى مسافات اليسار، وبهذا فإنّ المعادلة الثقافيّة ستكون عرضة للاهتزاز والتفكّك، وستحقق معاناة إقامة التّوازن بين الأصالة والمعاصرة"[15].

إنّ هذا الصّراع المرجعي الّذي بلغ حدّ التضارب في الخلفيات، لم يكن أبدا ليخدم أهداف الكتابة التمهيدية العربية وغاياتها التعليمية، بل انعكس سلبا على تحقيق ذلك؛ حيث كان سببا من أسباب كثيرة جعلت هذه الكتابة تنحرف عن مسارها التعليمي التبسيطي، ولا تلبّي طموح المتلقّي العربيّ، بل أكثر من ذلك أدخلت هذه الكتابة الفكر اللّساني العربيّ في أزمة معرفية على مستويات عدّة (مفاهيمية، مصطلحيّة، ..)، ووضعتنا أمام إشكالات عديدة في التلقّي.

ثالثا– إشكالات التلقّي في الكتابة اللّسانيّة التمهيديّة:

إنّ المتتبّع لخريطة البحث اللّسانيّ في المجال التداولي العربيّ، يلحظ أنّ اللّسانيّات ما تزال "ذلك المجهول الّذي يثير ريبا وشكا، وتوجّسا وخوفا، أكثر ممّا يثير فينا نزعة ولو فضوليّة لمعرفة موقفنا من واقع الثقافة والعلم والمعرفة في العالم"[16]؛ إذ على الرغم من مرور نصف قرن على معرفته، والعلم به، والبحث فيه، وتدريسه في الجامعات العربية، ما زال علما غريبا على جمهور

المثقفين في الوطن العربيّ، ناهيك بجمع غفير من القائمين على تعليم اللغة العربيّة في المدارس والمعاهد، وتلك لاشك آفة من آفات انفصال الجامعات العربية عن مجتمعها.[17] وهذا يعبر في حقيقة الأمر عن أزمة منهجية حادة "تلطّخ جبيننا؛ أزمة على جميع الصعد، تنظيرا وتعليما، نحوا ومعجما، استخداما وتوثيقا، إبداعا ونقدا"[18]؛ أزمة مست عديد المستويات، النظريّة، والمنهجيّة، والموضوعات البحثية. تتضح معالمها أكثر، إذا نحن تحدثنا عن وضع تدريس اللّسانيّات (أساتذة وطلبة) بأقسام اللّغة العربية –عن الجامعات الجزائرية أتحدث على وجه الخصوص–؛ حيث أصبحت تشكّل بعبعا كبيرا يخيف الأستاذ قبل الطّالب، وأضحى التعاطي معها سطحيًا وضعيفًا ومغالطيًّا ويصل في بعض الأحيان حدّ الابتذال الفكريّ. وضع من هذا القبيل لا ينمّ إلاّ عن شيء واحد هو "أنّ اللّسانيّات في ثقافتنا ما زالت تبحث عن نفسها وتتلمّس طريق الانطلاق؛ وحتّى وإن انطلقت في كثير من الأحيان، فقد كان ذلك في اتجاه غير مرغوب فيه"[19].

كما أنّها "كميدان بحث علمي لم تثبّت أقدامها بعد بالقدر الكافي، ولا تزال تفصل بينها وبين المستوى الّذي بلغته في جامعات الغرب مسافات كبيرة، اللّهم إلاّ ومضات تلمع بين الحين والحين، وترتفع إلى ذلك المستوى، ولكنّها في الأعم نتاج فرديّ خالص"[20].

هذا الواقع اللغويّ يعود في حقيقة الأمر إلى أسباب كثيرة وتتدخل فيه معطيات عدّة، منها ما يتعلق بالكتابة اللّسانيّة التمهيديّة، ومنها ما يتجاوزها، كتهميش هذا العلم مثلا مقارنة مع العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة الأخرى بالرغم من الازدياد المطّرد للمتخصّصين فيه، وبالرّغم من الأهميّة المركزيّة لموضوعه في المجتمع.

رابعا– الكتابة التمهيديّة وأسباب عزوف القارئ العربيّ عن اللّسانيّات:

تنوعت الأسباب وتعددت لمشكلة واحدة لازمت اللسانيات العربية الحديثة ولا تزال؛ وهي عزوف القارئ العربي عن هذا التخصص. في هذا الشأن يرى مصطفى غلفان أنّ الكتابة اللّسانية العربية التمهيديّة بقيت قيد العرض النّظريّ؛ إذ لم ينزل أغلبها إلى جانب التطبيق على اللّغة العربيّة. وقد سجّل بعض النّقاط الّتي جعلت هذه الكتابة تتسم بالقصور المنهجي؛ وهي:[21]

1. الارتباك في تحديد مجال البحث اللّساني مفهوميا ومنهجيا.
2. افتقارها إلى تقنيات التحليل اللّسانيّ.
3. ترويجها لبعض الأخطاء المعرفية والمغالطات المنهجيّة.

4. عدم مواكبتها لتطوّر البحث اللّساني ونماذجه.
5. الجنوح إلى التعميم الشديد.
6. إهمال المصادر العلميّة.

إضافة إلى أسباب أخرى أشار إليها عدد من الباحثين؛ نذكر بعضا منها:

1-خلوّ هذه الكتابة "من أي ربط بين ما تقدمه من معلومات لغويّة والواقع اللّغويّ العربيّ"[22]، وقد تجلّى هذا في إكثارها من "المثال التطبيقي المأخوذ مباشرة من اللّغات الأجنبية خاصة الإنجليزية"[23]. هذا ما أعطى انطباعا لدى القارئ عامة والمبتدئ على وجه الخصوص أن عدم الاشتغال بأمثلة من اللغة العربيّة، لا يمثّل لغته في شيء، ولا تنطبق مبادئها على لغته، وبالتالي لا تهمها. كلّ ذلك يتعارض مع كلّ كتابة لسانيّة تمهيدية جادّة ومنفتحة، يمكن أن تساهم في خلق وعي لساني جديد في الثقافة العربية.

2-معاناة لغة هذه الكتابة من التعمية والترجمة الحرفية والحشو، ممّا يشكل الفهم على المتلقّي، كما يعمد "بعض اللّسانيين إلى تعوير المسلك عن وعي منه، ظنّا منه بأنّ هذا يقنع القارئ بعلمية ما يكتب، فينفر كثير من النّاس من متابعة القراءة في هذا العلم إيمانا منهم بأهميّة الوقت الّذي ينفقونه بلا طائل"[24]. ولنا في بعض كتابات عبد القادر الفاسي الفهري أحسن مثال عن التعقيد المتعمد؛ من خلال استعمال مصطلحات غير واضحة الحدود، وتقديم أفكار دفعة واحدة؛ وهي تحتاج روية وهدوء في الطّرح.

3-عدم اعتناء اللسانيين العرب أثناء تقديم النظريّة اللّسانية الغربية بتطوّرها التاريخي، كما لم يعنوا كذلك بالبحث في الأسس النّظريّة والمعرفيّة لهذه النّظريّة. بل إنّهم حاولوا لما يمكن تسميته (تعريب النّظريّة)؛ أي تقديم هيكل نظريّ كامل من دون الوقوف على إحالاته ومرجعياته المعرفيّة.[25]وكان الأجدر أن تعرّب هذه النّظريّات من خلال مراعاة اللّغة العربية وقوانينها وقواعدها. يقول عبد الرحمان أيوب: "إنّ على اللّسانيّين العرب أن يعرّبوا النّظريّات اللّسانيّة من خلال عرضها في نطاق اللّغة العربيّة، وإنّ تطوّر اللّسانيّات العربيّة يجب أن يعتمد دراسة لغة الدّراسين، بدلا من ترجمة النّصوص؛ أي أنّ المفاهيم اللّسانيّة لا يمكن فهمها إلاّ في نطاق لغة معيّنة، فمهمة اللّسانيّ إذن أن يدرس المشكلات اللّغويّة القديمة وفق منهج حديث"[26].

4-عرض المعرفة اللّسانيّة الحديثة بأسلوب سطحي؛ وهذا لا ينطبق على جلّ الكتابات التمهيدية، فقد تميزت كتابات الرواد من اللسانيين العرب بقدر كبير من التأسيس المعرفي؛ لأنّ مؤلّفيها تلقّوا معارفها من مصدرها، ولكن لم يسعفهم ذلك في النجاح بالشكل المطلوب لعدم مراعاتهم الظروف المحيطة، ولم يحسنوا مخاطبة المتلقي. ولكن كتابات لسانية تمهيدية تالية غلب عليها طابع العفوية والسطحية؛ لأنّها لم تتعامل مع المعرفة اللّسانيّة من منطلق الاختصاص والجدية العلمية في النقل، فقد اضطلع بعض مؤلفيها بعرض أفكار النظريات اللسانية الحديثة دون عمق.[27]

خامسا– خاتمة: يلاحظ الناقد المتسلّح بالأدوات النقدية تباينا بين مفاهيم اللّسانيّات في أصولها، وبين ما تطرحه هذه الكتابات التمهيدية، وقد نتج عن ذلك اختلافات جوهريّة، وتعدد في التناول المنهجي والنّظريّ حيال النّظريّات بتعدد المؤلّفين وتوجّهاتهم، وهذا ما عاد بالسّلب حقيقة على القارئ العربيّ الّذي وقع بين جملة من الأفكار والآراء تغشاها ضبابية تمنع تشكل حدود فاصلة تتضح من خلالها المعالم، هذا ربما ما أعطى شرعيّة لمن نادوا برفض هذا التخصص الجديد على الأقل شكليا.

هوامش:

1-حافظ اسماعيلي علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته، دار الكتاب الجديد المتحدة، الرباط، 2009، ص106، 107.

2-عبد السلام المسدي، اللسانيات من خلال النصوص، الدار التونسية للنشر، تونس، ط2، 1986، ص6.

3-التهامي الراجي الهاشمي، توطئة لدراسة علم اللغة: التعاريف، دار النشر المغربي، دار الشؤون الثقافية العامة، 1948، الرباط، بغداد، ط2، ص5.

4- محمود السعران، مقدمة للقارئ العربي، دار النهضة العربية، بيروت، دط، دت، 17، 18. نقلا عن: فاطمة الهاشمي بكوش، نشأة الدرس اللّساني العربي الحديث، دراسة في النشاط اللّساني العربي، إيتراك للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط1، 2004، ص24.

5- محمود فهمي حجازي، مدخل إلى علم اللغة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ص07.

6- م ن، ص36.

7- حافيظ اسماعيلي علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته، مرجع سابق، ص110، 111، 112.

8- مبارك حنون، مدخل للسانيات سوسير، دار توبقال للنشر، الجزائر، ط1، ص5.

9- علي عبد الواحد وافي، علم اللغة، دار نهضة مصر، القاهرة، ط7، 1972، مقدمة الطبعة الأولى.

10- سامي عياد حنا، وشرف الدين الراجحي، مبادئ علم اللّسانيّات الحديثة، ص05.

11-فاطمة الهاشمي بكوش، نشأة الدرس اللّساني العربي الحديث، دراسة في النشاط اللّساني العربي، مرجع سابق، ص22.

12-م ن، ص14، 15.

13-تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، دط، 1986، تقديم المؤلف، ص ج-د.

14-مازن الوعر، قضايا أساسية في علم اللّسان الحديث، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط1، 1988، ص ص352-353. نقلا عن: حافيظ إسماعيلي علوي، نحن واللسانيّات: مقاربة لبعض إشكالات التلقّي في الثقافات العربية، مجلة الكلمة، منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، لبنان، مج15، ع59، 2008، ص41.

15-مازن الوعر، قضايا أساسية في علم اللّسان الحديث، ص ص354-355. نقلا عن: حافيظ إسماعيلي علوي، نحن واللسانيّات: مقاربة لبعض إشكالات التلقّي في الثقافات العربية، ص41.

16-منذر عياشي، قضايا لسانية وحضارية، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط1، 1991، ص11.

17- حلمي خليل، دراسات في اللسانيات التطبيقية، دار المعرفة الجامعية، 2000، ص9.

18- نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات، عالم المعرفة، العدد 265، دسمبر2001، ص236.

19- عبد القادر الفاسي الفهري، لسانيات الظواهر وباب التعليق، ندوة البحث اللّسانيّ والسيميائيّ، منشورات كليّة الآداب، الرباط، 1984، ص31.

20- مبروك سعيد عبد الوارث، في إصلاح النحو العربي، دراسة نقدية، دار القلم، الكويت، 1985، ص17.

21- مصطفى غلفان، اللسانيات العربية الحديثة، دراسة نقدية في الأسس النّظريّة والمنهجيّة، ص104، ص120.

22- حافيظ اسماعيلي علوي، اللسانيات في الثقافة العربية الحديثة، ص25. نقلا عن: صورية جغبوب، قضايا اللسانيات العربية الحديثة بين الأصالة المعاصرة من خلال كتابات أحمد مختار عمر، جامعة فرحات عباس، سطيف، الجزائر، رسالة دكتوراه، نسخة إلكترونية، 2012/2011.

23- م ن.

24-عماد زين، حقيقة الأزمة اللّسانيّة في العقل العربي رؤية في استراتيجيات الحلّ، مجلة جامعة النجاح للأبحاث، غزة، مج24، ع1، 2015، ص55.
25-فاطمة الهاشمي بكوش، نشأة الدرس اللّسانيّ العربيّ الحديث، ص23.
26-عبد الرحمان أيوب، محاضرات في اللغة، بغداد، 1966، كلمة المؤلف.
27- م ن.